عصور الجديدة- المجلد 8– العدد 1 شتاء– ربيع (ماي) 1439هـ/2017- 2018م
ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600–6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

مقاومة الشيخ بوزيان[1] بالزعاطشة سنة 1849،على ضوء الكتابات الأجنبية*

The Resistance of Sheikh Bouziane in Zaatcha in 1849 in Light of Foreign Writings

صص128-141

د. العربي بلعزوز ~~~~~~~~~~
Belazzouz larbi
أستاذ محاضر أ في التاريخ الحديث والمعاصر
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- جامعة حسيبة بن بوعلي- الشلف
Larbi.belaz216@yahoo.fr

Abstracts: The resistance of Sheikh Bouziane in the Zaatcha Oasis in the North Zab region in 1849 was an excellent example of bravery and sacrifice for the homeland. Its resistance showed in the world history the importance of the gift which allows people to live in dignity, freedom, and rejection of humiliation. Based on documents from the military archives of the Van Saint-Pierre Palace and other military archives of the Overseas Archives Center of the French city of Aix-en-Provence, on the one hand, I sought through this article to reveal the level reached by the Algerian resistance. It is a model among so many others of bravery, firmness, and the defense of the homeland till the last breath of every Algerian. And on the other hand, I envisioned showing the degree of the colonial hatred and resentment against the Algerian resistance's symbols in the desert. And thanks to that, one can find a logical and objective justification for the transfer of the skull of Sheikh Bouziane to France, where it is today in one of their museums.

Keywords: Zaatasha, Bouziane, Herbion, Oasis, resistance, attack, defense, tribes.

مقدمة: بعد انتهاء كفاح الأمير عبد القادر سنة 1847، عرفت المقاومة في الجزائر بعض الهدوء لاسترجاع الأنفاس والتأمل في وسائل الكفاح بعد ترحيل زعيمها إلى فرنسا، الا أن تلك الوضعية كانت ظرفية بسبب مغادرة رمز المقاومة الكبير للجزائر. ولكن بمجرّد أن استعيدت الأنفاس واتضحت الرؤية حتى أدرك خلفاء الأمير وغيرهم المهمة التي عليهم استكمالها لتقويض المحتل وعرقلة تقدمه في الجزائر، والعمل على إنهاء وجوده في البلاد منتهزين كل الظروف والمستجدات المساعدة داخل الجزائر وخارجها.

* تاريخ استقبال المقال:2018/01/14 تاريخ المراجعة:2018/04/29 تاريخ القبول: 2018/04/22

فمنذ بداية سنة 1849 اشتعلت الجزائر في التل والصحراء معا عبر ثورات كثيفة ومركّزة أربكت الحاكم العام الجنرال "شارون"(Charon) وأشعرته بأن بقاء بلاده في الجزائر بات في خطر، وعليه استعمال كل وسائل العنف والتدمير لاحتوائها، ومن أشهر النماذج التي خلّدها التاريخ في تلك الفترة ثورة الشيخ أحمد بوزيان بواحة الزعاطشة، وجاء هذا البحث للإجابة على مجموعة من الاشكاليات: إلى أي مدى تمكّن الشيخ بوزيان من إشعار المحتل بأن تواجده في الجزائر بات في خطر؟ وبأي الوسائل؟ وكيف كان رد المستعمر؟

أسباب ثورة الشيخ بوزيان بالزعاطشة: ألصقت الكتابات الاستعمارية العسكرية وغيرها بالشيخ بوزيان قائد المقاومة الكثير من الأوصاف للتقليل من قيمته، كما فعلت مع غيره، حيث أرجعت أسباب الثورة إلى عوامل مادية وأخرى ذاتية؛ ومن تلك الأسباب التي تداولتها المصادر الفرنسية:

- حرمان الشيخ بوزيان من منصب في إدارة الأهالي تحت السلطة الفرنسية.
- ارتفاع قيمة الضرائب على النخيل من 25 سنتيم إلى 40 سنتيم.
- إضافة ضريبة جديدة على الزوايا[2].

إلا أن الوثائق العسكرية الرسمية تحدثت عن أسباب أخرى أكثر موضوعية، تنم عن نضج المقاومة في الجزائر وسعة اطلاعها بكل ما يحدث في الدول التي لها صلة بالجزائر بشكل أو بآخر، والتي تكمن في الآتي:

- انعكاسات ثورة 1848 في فرنسا التي عصفت بمملكة جويلية وبالملك "لويس فيليب" (Louis Philippe)، وتحول النظام إلى الجمهوري وما صاحبه من تحولات ذات صلة بتطبيق النظام المدني في البلاد، وما انجر عنه من نتائج في الجزائر كتغيير الحاكم العام، وتقليص عدد الجيوش بها، وقد انتقلت هذه الأخبار السياسية إلى الزيبان عن طريق العمال البسكريين الذين اشتهروا بالعمل في المدن الكبرى ولاسيما مدينة الجزائر منذ العهد العثماني[3].

- التحركات الكثيفة في الجهة الشرقية للمغرب لقوات معتبرة بأمر من السلطان المغربي "مولاي عبد الرحمن" لتأديب مناطق بلاده الحدودية (بني سناسن، زاوية مولاي الطيب، الشيخ سيدي الحاج الطيب التازي)، إلا أنها امتدت إلى داخل الحدود

الجزائرية الغربية لأن قسما من هؤلاء الرافضين لدفع الضرائب للمخزن تسللوا إلى الجزائر. وكان الجنرال "مكماهون"(Mac Mahon) الحاكم العسكري لتلمسان يراقب الوضع بقلق، خاصة عندما ظهرت شخصية "سي الشيخ بن الطيب" في وجدة الحدودية، والتي تشير المصادر أن تأثيره امتد إلى أولاد سيدي الشيخ الغرابة بالجزائر، وتحولت إلى ثورة امتد مداها إلى غاية الشرق الجزائري سنة 1849[4].

نتيجة لذلك وصل إلى أسماع السكان في الجزائر أن الاستعمار انتهى أمره، وكنتيجة لذلك ثارت "متليلي" وكذا "سي حمزة زعيم قايد"، بالإضافة إلى "أولاد سيدي الشيخ الشراقة" بالتنسيق مع الزاوية التيجانية بعين ماضي. امتدت فكرة الثورة بعد ذلك إلى سفوح عمالة قسنطينة والجزائر، كما أشيع في قبيلة فليتة بأن الأمير عبد القادر فرّ من معتقله في لامبواز، الأمر الذي ساهم في تأجيج الغليان الشعبي، وامتدت الثورة إلى منطقة "حميان الشراقة" جنوب معسكر، وفسّرت التقارير العسكرية الفرنسية ذلك بيقظة التأثير الديني[5].

كانت مهمة المكاتب العربية هي التحرك في كل الجزائر لتكذيب الأمر، وخاصة أمر مول الساعة الذي ظهر في البرواقية ضواحي المدية، وكذا دعوة أولاد نايل جنوب بوسعادة للثورة بقيادة "سي موسى بن عمار" الذي سيقتل لاحقا بالزعاطشة، بالإضافة إلى ظهور شخصيتي "سي إبراهيم" و"سي المختار" في نفس الفترة في بوسعادة.

امتدت الثورة إلى المثلث الواقع بين البليدة والمدية وسور الغزلان، ثم امتدت لتشمل دلس وجرجرة وفليتة، ثم بجاية التي امتنعت عن دفع الضرائب، ثم إلى فرجيوة وزواغة وكذا جيجل وميلة وباتنة والحضنة والزيبان، كما نسجل في هذه الظروف عودة "أحمد بلحاج الصغير" أحد خلفاء الأمير عبد القادر الذي كان في قفصة التونسية، ثم امتدت إلى واحة تقرت والسمندو منذ جوان 1845م[6]، وتشير ذات المصادر إلى أن هذه التحركات الكثيفة في الشمال دفعت بسكان قبائل الجنوب إلى التنقل شمالا للتزوّد بالحبوب في غير موسم الهجرة العادي، قبل لجوء الإدارة الاستعمارية إلى غلق الأسواق بسبب الثورة.

نشاط الشيخ بوزيان منذ شهر ماي 1849 ورد فعل الاستعمار: بدأ الشيخ بوزيان دعوته للجهاد منذ شهر ماي 1849 حسب التقارير العسكرية الفرنسية[7]، حيث

رصدت عدة رسائل بختمه الخاص في مناطق تمتد إلى شمال وشرق وغرب الزعاطشة (الزاب الشمالي)، وكانت تدعو إلى حمل السلاح ضد الاحتلال، وكان تخوف السلطات الاستعمارية كبيرا من محتوى تلك الرسائل، لأن الشيخ بوزيان لم يكن هدفه القيام بعمليات عسكرية استعراضية فحسب، بهدف تحقيق بعض المآرب الشخصية- إن نحن أخذنا بعين الاعتبار أسباب الثورة التي أوردتها المصادر الفرنسية- بل كان يهدف إلى إخراج الاستعمار الفرنسي من الجزائر نهائيا، مرتكزا على الهيجان الشعبي العام، وإن لم يرتق في بعض المناطق إلى ثورة حقيقية لمحاربة المحتل، بل إلى ردود أفعال ظرفية لأسباب ذات صلة بالضرائب، مما يؤكد أن الضرائب كانت فعلا سببا في عصيان بعض المناطق، وفي ذات الوقت فإن تأكيد كل من الحاكم العام والجنرال "هيربيون" (Herbillon) على الزعاطشة بالذات يثبت بأنها هي التي كانت تملك الوسائل المادية والبشرية واللوجيستية وحتى الروحية لمواصلة الثورة بطموح كبير وصل إلى كل المناطق من العمالات الشرقية والوسطى وحتى الغربية.

نجح "الشيخ بوزيان" في استقطاب عناصر كثيرة من خارج الزعاطشة لتقديم الدعم، ورصد ذلك العقيد "كاربوجيا"(Carbuccia) في بسكرة، كما قام قائد الثورة بعدة تحصينات وأشغال خارج أصوار الزعاطشة تحسبا لأي هجوم، وللإشارة لم يكن هدف الشيخ بوزيان تجميع أكبر عدد من الأنصار في الزعاطشة، وإنما كان هدفه إثارة كل المناطق لدفعها إلى القيام بثورة عارمة وشاملة، تنهي التواجد الاستعماري في الجزائر، ولكنه اعتبر أن القاعدة والحصن المتين للثورة هي واحة الزعاطشة[8].

محاولة إلقاء القبض على الشيخ بوزيان وانعكاساته: ظن الضابط "سيروكا" (Seroka) حاكم المكتب العربي في بسكرة أنه بإمكانه القيام بمبادرة إلقاء القبض على الشيخ بوزيان والقضاء على ثورته في المهد، للحصول على ترقيات وتشريفات عسكرية من دون شك، حيث انتقل إلى الزعاطشة بصحبة ثمانية فرسان إلا أن محاولته باءت بفشل مخجل نهاية شهر ماي وعاد الضابط بخفي حنين[9]، وظن القادة أن حجم القوات القليلة التي اصطحبها "سيروكا" معه هي سبب عدم امتثال الشيخ بوزيان لمطالب الضابط الفرنسي، ولذلك قام ضابط آخر هو الملازم "ديبوسكي" (Dubosquet) على بعد أيام من ذلك بمحاولة ثانية ومعه خمسون فارسا، حيث

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600–6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

حاول إقناع سكان المنطقة بالتراجع عن نصرة الشيخ بوزيان وتسليمه له، إلا أنه لاقى نفس مصير سالفه[10].

إن هذه الأحداث تنم عن سذاجة بعض الضباط الفرنسيين، وعدم درايتهم بالأسس المتينة التي تربط عناصر المجتمع الجزائري بالوطن وببعضهم البعض، والطاعة في تلك الظروف الصعبة، إذا استثنينا طبعا بعض الخونة وضعاف النفوس ممن تعاون مع المحتل للحصول على بعض الفرنكات وسلطة التعالي على بني قومه، ومن هؤلاء شيخ العرب في بسكرة الذي كلّف من قبل الإدارة الاستعمارية بعد فشل المحاولتين بالعمل على إبقاء الثورة محصورة في الزعاطشة وفرفار وليشانة فحسب، من خلال قيامه بدوريات لمنع أي تواصل بين الزعاطشة وخارج المنطقة، إلا أن هذا الشيخ فشل في مهمته؛ لأن فرسانه انسلخوا عنه لاعتبارات كثيرة تربطهم بأهلهم في الزعاطشة، خاصة بعد الدّعم الذي تلقوه من أولاد سحنون بالحضنة الذين ينتمون إلى قبيلة أولاد درايج الذين كانت لهم مع الزيبان علاقات تجارية قديمة[11].

تجسدت ثورة أولاد سحنون في الهجوم على زمالة "الخليفة سي مقران"، وكذا قائد أولاد سلطان "سي عمران بن جنان" الذي هرع إلى مساعدة سي مقران، وكاد أن يقع كليهما في يد أولاد سحنون، ومهما يكن من أمر فإن هذه الثورة أتت على الكثير من عملاء الجيش الفرنسي بالمنطقة، ومن بينهم ابن قائد أولاد سلطان، كما قامت بإحراق محاصيل المعمرين، وخشي المستعمر أن تصل تلك الثورة إلى بلزمة وبوطالب، فاتخذ الإجراءات للحيلولة دون وقوع ذلك[12].

أثناء المناورات الفرنسية الفاشلة في الزعاطشة، وثورة أولاد سحنون واصل الشيخ بوزيان نشاطه التوعوي الهادف إلى دفع القبائل إلى حمل السلاح لتحرير الوطن في الزاب الظهري (أولاد نايل وأولاد الساسي وغيرهما)، والزاب القبلي الأقرب، وأدركت الادارة الاستعمارية خطورة ما يجري حيث كتب "شارل فيرو" المترجم الرسمي للجيش الإفريقي في هذا الشأن قائلا: «إن تطورات الأحداث في الزعاطشة باتت مقلقة للغاية، ليس على عمالة قسنطينة فحسب بل على كل الجزائر»[13]، ولذلك كلف الحاكم العسكري للعمالة الشرقية الجنرال هيربيون القائد العسكري بباتنة "العقيد كاربوجيا"بالتوجه إلى الزعاطشة، حيث راسله بتاريخ 9 جويلية 1849، ومما تضمنته

الرسالة ما نصّه: «أوصيك بعدم ترك أي شيء للحظ، وعدم التوجه إلى قلب الزعاطشة إلا إذا كنت متأكدا من النتيجة، وعليك بالحذر من الحواجز المائية والنخيل...، لا يجب المجازفة إلا بنتائج محقّقة...»[14]، ولكن قبل ذلك أمره بالتوجه إلى القبائل الثائرة في طريقه قبل بلوغ الزعاطشة.

توجه القوات الفرنسية إلى الزعاطشة: تمكن العقيد كاربوجيا من جمع ما تعداده 1680 عسكري من قسنطينة وسطيف وباتنة، واتجه إلى بسكرة على أن يتولى أمر القبائل الثائرة في طريقه، وكانت أولى ضحاياه قبيلة أولاد سحنون الثائرة التي كان أهلها يقيمون قرب متكوك بالحضنة، حيث ارتكب مجزرة رهيبة في حق النساء والأطفال والشيوخ، واستولى على 2000 رأس من الإبل و15000 رأس من الماشية[15].

ولأن الأمر لم يكن يخص عمالة قسنطينة فحسب بل كل الجزائر، كتب الحاكم العام الجديد الجنرال شارون إلى الجنرال هيربيون بشأن حملة كاربوجيا على الزعاطشة في اليوم الموالي (10 جويلية) قائلا: «أود من العقيد كاربوجيا أن يقلّص العمليات العسكرية قدر الإمكان، لأنها أصبحت أكثر صعوبة بالنسبة للقوات في هذا الفصل، وإذا تواصلت فعلى العقيد العمل على منع تطور الثورة وربح الوقت بهدف بلوغ الخريف» [16].

شعر العقيد كاربوجيا بعد الغارة على مخيم أولاد سحنون بثقة مبالغ فيها، حيث تناقلت المصادر قولته التالية: "سأتوجه إلى الزاب الظهري وسأقمع الثورة به، وسيتذكّر هؤلاء ثأرنا لأكثر من 200 سنة"، وهي المقولة التي تضمنتها رسالته إلى الجنرال هيربيون بتاريخ 14 جويلية 1849[17]. أتمّ العقيد مسيرته إلى أن وصل إلى الزعاطشة بتاريخ 16 جويلية، في وقت كان صلحاء وشيوخ الزوايا بالمنطقة يتّفقون في ذات الواحة على وجوب الاتحاد والجهاد لرد الاعتداء.

كانت واحة الزعاطشة تبدو وكأنها جنّة تحيط بها من كل الجهات نحو 170.000 نخلة[18]، وأشجار مثمرة كثيرة كالتين والرمان والمشمش وغيرها، كما كانت تعجّ بالحياة في هدوء وسكينة، بناءاتها قديمة وصلبة، ولذلك كانت كالحصن المنيع بأصوارها العالية السميكة، وبالخندق المائي الذي يحيط بها من كل الجهات، والذي يبلغ اتساعه نحو ثمانية أمتار وعمقه بين 1.20 إلى 1.50 متر، وفي ذات الوقت كان

قاطنو الواحة ومن التحق بهم من المناطق الأخرى لتدعيم المقاومة على أتم الاستعداد لمقاومة الغزاة.

خريطة عسكرية لواحتي الزعاطشة وليشانة بتاريخ 29 أكتوبر 1849

SHD, GR 1H 211, Histoire de la campagne du Ziban, Siège et la prise de Zaatcha.

في غمرة تلك النشوة بالانتصار السابق على أولاد سحنون في مخيمهم، اندفع كاربوجيا مهاجما الزعاطشة بجنوده وستة مدافع، إلا أنه جوبه بخروج عدد كبير من الثوار إلى خارج الأسوار لملاقاته يتقدمهم الشيخ بوزيان ببرنوسة الأخضر، وبإطلاق نار كثيف عليهم، وكان يصل الثوار دعم وسند من بوسعادة والمسيلة.

مني كاربوجيا بهزيمة تاريخية وخسر من رجاله 31 عسكري من بينهم النقيب قويو الابن المكفول لرئيس الجمهورية نابليون الثالث، وجرح 117 آخرون من بينهم ستة ضباط[19] واضطر بعد ذلك إلى الانسحاب، وانقلب بذلك السحر على السّاحر، حيث زادت تلك الهزيمة من عزيمة ومعنويات الشيخ بوزيان ورجاله، كما شجعت

القبائل المجاورة على الثورة كما حصل في سيدي خالد وأولاد جلال وأولاد الساسي بقيادة سي المختار، وانتقل الصدى حتى إلى الأوراس التي كان ينحدر منها الشيخ بوزيان، مما يعني أن كل العمالة باتت قاب قوسين أو أدنى من ثورة شاملة.

فشل الحملة العسكرية الأولى وتوسع دائرة الثورة: إن فشل العقيد كربوجيا في مهمته في الزعاطشة، اعتبرته القيادة الاستعمارية بأنه خطأ يجب تصحيحه للحفاظ على سمعة فرنسا في كل الصحراء، ولذلك أبلغ الحاكم العام الجنرال هيربيون قائد العمالة الشرقية بضرورة اتخاذ كل الإجراءات لاحتواء الوضع في الجنوب، إلا أن حرارة الصيف أرغمت القوات الفرنسية على التريث إلى غاية بداية فصل الخريف، وهو وقت ثمين للثوار لتوسيع رقعة الثورة التي امتدت إلى غاية باتنة التي شهدت ثورة أحمد بن الجودي في أولاد زيان، وأخرى في واد عبدي حيث استهدفوا بن عباس قايد المنطقة. في ذلك المناخ الثوري والبطولي، التحق بالركب الشاوية رغم محاولات المقدم عبد الحفيظ اقناعهم بالعدول عن ذلك، وانضمت إليهم قبائل أولاد داوود وبني سليمان وقبائل أخرى، وقرروا جميعا السير نحو بسكرة[20].

التقت تلك القبائل في سريانة مع قوات العقيد سان جرمان (Saint Germain)، حيث دارت بينهما معركة تاريخية قتل فيها العقيد الفرنسي، ولكنها فرّقت القبائل الثائرة واثنتها عن مواصلة طريقها إلى بسكرة، وكان الشيخ بوزيان في طريقه للالتقاء بهم في بسكرة، ولكن بعد سماعه بخبر المعركة ولّى أدراجه إلى الزعاطشة.

زاد تحدّي سريانة ومقتل الضابط الفرنسي من غضب وحقد كل الإدارة الاستعمارية المدنية والعسكرية على الشيخ بوزيان، واعتبروه المسؤول الرئيس عن كل ما يحدث، وفي هذا الشأن كتب الحاكم العام إلى هيربيون قائلا: "يجب أن تكونوا أكثر قوة ممكنة لتحقيق نتائج ملموسة ومعاقبة الزعاطشة عقابا مثاليا"[21].

كانت الزعاطشة، من دون شك، محورية في الرؤية العامة للحاكم العام والجنرال هيربيون، لأنهما كانا يؤمنان فعلا بأن هزيمة القوات الفرنسية في الزعاطشة سيكون له تأثير كارثي على الوضع الأمني العام في كل الجزائر، وعلى العكس من ذلك فإن تحقيق الانتصار سيكون له تأثير جد إيجابي على كل المنطقة الشرقية، ولذلك

أولى الحاكم العام اهتماما خاصا بتطور الأحداث في الزعاطشة، وطلب أن يكون التعامل مع الثورة بكل قسوة.

انتهز الشيخ بوزيان فرصة تأخر قدوم القوات الفرنسية وراح يكثف من اتصالاته لإقامة تحالفات عبر دعوة السكان إلى الجهاد، وانضم اليه في تلك الأثناء سي المختار من أولاد جلال، وسي عبد الحفيظ الذي كان قد عمل على إثارة كل الأوراس من قبل، وفي 17 من سبتمبر 1849 انتقل الشيخ بوزيان إلى سريانة لدفع سكان واحة سيدي عقبة وبسكرة والواحات المجاورة لدعم الثورة، واستغل فرصة رفع الاستعمار لقيمة الضرائب لإثارة السكان[23]، وأثمرت تلك المساعي حيث أبدى كل سكان منطقة الزاب الظهري عداءهم لقوات الاحتلال، لتنتقل العدوى بعد ذلك إلى منطقة الزاب القبلي من خلال ثورة واحة سيدي خالد وأولاد جلال وأولاد الساسي.

وصول الجنرال هيربيون إلى الزعاطشة يزيد من شدة الثورة: في ظل هذه التطورات تلقى الجنرال هيربيون أوامر من الحاكم العام باحتواء الوضع، ولذلك تحرك من قسنطينة بتاريخ 25 سبتمبر 1849 ومنها إلى باتنة التي وصلها بعد أربعة أيام على رأس قوة قوامها 3306 رجل و127 ضابط، وعند وصوله إلى الزعاطشة بتاريخ 7 أكتوبر كانت القوة الغازية قد بلغت 4493 رجل و165 ضابط، بعد انضمام تعزيزات أخرى في الطريق، واختار أن يكون مخيم قواته على كدية المائدة على بعد نحو 500 متر عن الزاوية القديمة[24]، وكان ذلك الموقع يسمح له بمراقبة كل من واحة الزعاطشة وفرفار وبوشقرون وطولقة[21]، وكذا لأنها بالقرب من مصدر مائي غزير (رأس عين ميعوب) التي كانت على بعد 200 متر.

بمجرد أن وصلت القوات الاستعمارية إلى الزعاطشة حتى باشرت هجومها على الواحة وضواحيها، حيث استهدفت الزاوية التي استولت عليها بعد دفاع مستميث من المقاومة، بدليل أن حصيلة هذا اليوم كانت مقتل 25 جندي فرنسي من بينهم ضابط، وجرح 67 آخرين من بينهم 11 ضابط، وفي اليوم الموالي شرعت قوات الاحتلال في قصف أسوار الواحة بالمدفعية والقيام بمحاولات للتقدم من الدفاعات التي كانت تكلّف الغزاة الكثير من الجنود بما فيهم العقيد بوتي (Petit) الذي تعرّض إلى إصابة توفي على إثرها يوم 2 نوفمبر[25].

كانت خطة المقاومة خلال فترة الحصار تقوم على إزعاج العنصر المهاجم باستمرار، ومجابهتهم بالجرأة والحيلة وعرقلة مستمرة للأعمال التي كانت تحضّر للهجوم، وتكثيف الهجمات مساء لفرض ليالي بيضاء على الجنود لإرهاقهم[26]، وفي خضم ذلك الحصار استمر وصول الدعم والمدد إلى الزعاطشة باستمرار، وكان السكان يستقبلون ذلك بزغاريد النسوة وطلقات نارية من المقاومين، ليعودوا أدراجهم بعد أيام بعد أن يتركوا ما حملوه من مؤن وبارود، وقد بلغت مسامع الجنرال هيربيون مقولة كان يرددها الشيخ بوزيان كثيرا: "إن المسيحي لا يدخل مكّة ولن يدخل الزعاطشة أيضا"[27].

لم يكتف المقاومون بالدفاع عن تحصينات الواحة فحسب، بل كانوا من حين لآخر يخرجون لاسترجاع مواقع استراتيجية، كما حدث ليلة 13 أكتوبر حينما حاولوا استرجاع المنبع المائي، ومحاولة قطع الاتصالات بين مخيم كدية المائدة ومخيم الزاوية بالإضافة إلى السعي للاستيلاء على جزء من مؤونة العدو، وإلى غاية ذلك اليوم كانت حصيلة الخسائر الفرنسية 200 قتيل[28].

قرّر الجنرال هيربيون بناء على تقارير ضباطه القيام بالهجوم الأول على الزعاطشة يوم 20 من أكتوبر بعد أن فتحت ثغرتين في جدار الواحة، وقبل ذلك أرسل العقيد بورباكي (Bourbaki) لمنع أي اتصال بين واحتي ليشانة والزعاطشة، كما كلّف العقيد بارال(Barral) بمنع وصول أي دعم من الزاب الظهري للواحة، إلا أن الهجوم الأول على الزعاطشة باء بفشل ذريع، وأجهز على 45 جندي فرنسي من بينهم الرائد قييو والنقيب بارت بالإضافة إلى جرح 147 من القوات الغازية[29].

رغم الخسائر التي لحقت ببعض الأجزاء من الصور المحيط بالزعاطشة، إلا أن فشل الهجوم زاد من معنويات المقاومة وضاعف من إصراراها على الثبات لرد الاعتداء، في حين أن الجنرال هيربيون أدرك بأن اجتياح الزعاطشة لن يتحقق إلا بوصول تعزيزات أخرى، في ذات الوقت كان من العسير وصول التعزيزات إلى الزعاطشة من المناطق المجاورة، ولذلك تحوّل دعمهم لهم عبر الهجوم على قوافل الإمدادات بالمؤونة والذخيرة للعدو، حيث عملوا على غلق الطريق بين الزعاطشة

وبسكرة، وكذا ذلك الواصل بين بسكرة وباتنة، كما تحولت واحة ليشانة المجاورة إلى مقر إيواء لكل العناصر القادمة من كل مكان لتقديم الدعم للواحة[30].

صادف وصول الأمير جيروم بونابارت(Gerome Napoléon)- أحد أحفاد الإمبراطور نابليون- للمساهمة في المعركة صدور قرار هيربيون بتاريخ 21 أكتوبر، والقاضي بمباشرة قطع أشجار النخيل بشكل كثيف أكثر من ذي قبل، حيث كلّف 400 عنصر بالمهمة، إلا أن تلك العملية جوبهت بمقاومة عنيفة وإطلاق نار كثيف، في هذه الأثناء تحرك أحمد بلحاج أحد خلفاء الأمير عبد القادر متجها إلى سيدي عقبة، كما قرّر بدو الشمال التوجه جنوبا رغم محاولات شيخ العرب لمنعهم من ذلك[31]، الأمر الذي قدّم دعما معنويا للمقاومين.

وصلت الخسائر الفرنسية من تاريخ 15 أكتوبر إلى غاية 26 منه إلى 888 قتيل بعضها برصاص المقاومة وبعضها الآخر بالأمراض حسب التقارير العسكرية، وظلت القائمة مفتوحة، حيث تعرضت قافلة فرنسية يوم 30 من الشهر لهجوم عنيف بين واحة فرفار وطولقة، أرغمت على إثره إلى التراجع إلى المخيم بخسائر بلغت 39 جندي بين قتيل وجريح[32]، كما تجمعت قوات من بوشقرون وفرفار وليشانة وطولقة والزعاطشة بدعم من البدو الرحل، وقاموا بالهجوم على العناصر الفرنسية خارج أسوار الزعاطشة، حيث حاولوا تدمير وحرق المنشآت التي كانت قوات الهندسة الاستعمارية تعمل على إقامتها لاجتياز الحاجز المائي، واستمرت تلك الوضعية إلى غاية يوم 15 من نوفمبر، وتمكنوا فعلا من تدمير عدد منها[33].

الهجوم الثاني وتدمير الزعاطشة: مع بداية شهر نوفمبر كثّفت القوات الاستعمارية تحضيراتها للهجوم الثاني، في وقت كانت تصل فيه تعزيزات بشرية ولوجيستية تدعيما لقوات الجنرال هيربيون، حيث وصل تعداد مجموع قواته إلى 8075 عسكري في منتصف ذلك الشهر، ومع ذلك قامت مجموعة من عناصر المقاومة بهجوم عنيف يوم 24 من الشهر لتحطيم المنشآت والاستيلاء على بعض المدافع، ونجحوا نسبيا بعد أن ألحقوا بقوات العدو خسائر في الأرواح بلغت 11 قتيل من بينهم ضابط و42 جريح، وبعد أن استعصى على المقاومة منع تقدم قوات الهندسة التي كانت تحميها بطاريات المدفعية، قامت بتحويل المياه المخصّصة للسقي تجاه الحاجز المائي بهدف

إغراق تلك المنشآت وإفشال تلك المجهودات، ولكن ذلك وإن عطّل الخطط الاستعمارية إلى حين، فإنه لم يمنع التحضيرات للهجوم الثاني[34].

بلغت القوات الاستعمارية في الزعاطشة عشية الهجوم الثاني الذي تقرّر أن يكون في صبيحة يوم 26 نوفمبر أكثر من 8000 عسكري، و16 مدفعا بعيارات مختلفة أطلقت ما مجموعه 3500 قذيفة على الواحة إلى غاية نهاية الهجوم الثاني حسب شهادة العقيد المكلّف بذلك[35]، وهو ما ينم على أن التعليمات التي قدّمت كانت تهدف إلى تدمير كلي لواحة الزعاطشة، وإزالة وجودها من الخريطة[36]، بالإضافة إلى إبادة جماعية لكل المقاومين والنسوة والشيوخ والأطفال الذين كانوا بداخلها.

بعد قصف مدفعي كثيف، أعطيت إشارة الهجوم بثلاث قوات من مواقع مختلفة، وبعد مقاومة منقطعة النظير انتهى القتال بعد أربعة ساعات من بدايته، وكان آخر بيت بقي قائما في الزعاطشة هو بيت الشيخ بوزيان الذي نسف ثلاث مرات متتالية بالمتفجرات إلى أن سقط سور منه، دون أن تتوقف مقاومة من كانوا بداخله لأنهم أجهزوا على 40 من عناصر الزواف إلى أن سقطوا مقاومين وأسلحتهم بأيديهم، أما مصير الشيخ بوزيان وابنه والشيخ سي موسى الدرقاوي فكان الرمي بالرصاص، ثم قطعت رؤوسهم عن أجسادهم وعلّقت على جذع نخلة تشفيا وازدراءً.

لم ينج من سكان الزعاطشة بعد ذلك الهجوم البربري سوى خمسة نسوة وشيخ مسن، حسب الجنرال هيربيون[37]، وبعدها أعطيت الأوامر إلى قوات المدفعية وغيرها بتحويل الزعاطشة إلى ركام، وقطع ما أمكن مما تبقى من النخيل، لمحو كل آثار للمقاومة بل لكل ما يشير إلى العمران بالواحة، لكيلا يستحضر الناس تلك البطولات التي صنعت في تلك الواحة، كما أن قوات الاحتلال استخلصت دونما شك مجموعة من الدروس حول البطولة والصمود والتضحية من أجل العزّة والكرامة، لأن الضابط بورسال أشار إلى أن المقاومة أو كما سماها العصيان كانت مثل النار في الهشيم حيث هّددت كل الإقليم الشرقي للجزائر، وعدم إبادتها (الواحة) قد يكون مصدر خطر في المستقبل على التواجد الفرنسي في البلاد[38]، كما أن أخذ رؤوس الأبطال الثلاث إلى متحف الإنسان بباريس حيث تقبع هناك إلى اليوم يدخل في سياق

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600–6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

قطع كل تواصل بين الأجيال اللاحقة ورمز المقاومة الشيخ بوزيان حسب الفكر الاستعماري الضيق.

خاتمة: ما يمكن استخلاصه من هذا البحث حول مقاومة الشيخ أحمد بوزيان هو أن الزعاطشة تعتبر محطّة هامة من محطّات المقاومة الجزائرية للاحتلال، لأنها هدّدت التواجد الاستعماري في البلاد باعتراف الحاكم العام نفسه، وكادت أن تغيّر مصير الجزائر لأنها جاءت في ظرف مناسب، وتمكّن خطاب الشيخ بوزيان إلى الجهاد من أن يصل إلى مسافات بعيدة، وهو ما يبعد عنها تلك الأسباب الشخصية والآنية التي يمكن اعتبارها أسبابا مساعدة فحسب كارتفاع قيمة الضرائب، التي انتهزها الشيخ بوزيان لتأليب السكان ضد المحتل.

كما تنم هذه الثورة على أن الشيخ بوزيان كان على دراية كبيرة بفنون القتال والخطط العسكرية، حيث استهدف، حسب المعطيات المتوفرة لديه، مصالح مختلفة للعدو؛ حيث حاول تجريده من مصدر الماء، ثم من المؤن من خلال محاولة الاستيلاء على بعضها ومنعها من الوصول إلى القوات المحاصرة للواحة بمراقبة الطرق الرئيسية، ثم العمل على إرهاق العدو وفرض ليالي بيضاء على الجنود لإرهاقهم وتعطيل تقدمهم وإبطال خططهم واسترجاع مواقعهم، الأمر الذي كلّف الغزاة خسائر عسكرية كبيرة بما في ذلك مجموعة من الضباط.

كما نستنتج أيضا ذلك التفاعل العفوي بين الجزائريين في مختلف جهات الوطن مع تلك الثورة، حيث هرعوا من المناطق المجاورة ومن جبال الأوراس وغيرهما لنصرة الواحة ومنع المحتل من الاستيلاء عليها، لأنها كانت تمثل بالنسبة لهم نموذجا حيّا للمقاومة والبطولة والثبات والصمود والجرأة، ومواجه بين الباطل والحق وبين السيادة والعبودية، وكتب عنها أبو القاسم سعد الله قائلا: "إن هذه الثورة تعتبر في الحقيقة استمرارا لمقاومة الأمير عبد القادر ومقاومة قسنطينة الطويلة..."[(39)].

لازلنا فعلا نتذكر ما حدث في الزعاطشة بعد أكثر من قرن ونصف القرن، وسنتذكر ذلك أكثر مما اعتقده العقيد كاربوجيا، ولكن من زاوية مخالفة تماما، لأن ما حدث في واحة الزعاطشة يعتبر قمة الثبات والمقاومة ورفض الرضوخ للإهانة والذل، وهو ذلك الدّرس الذي استوعبه زعماء المقاومة في الجزائر بعد ذلك في التل

والصحراء معا، وفي نفس الوقت تعتبر أحداث واحة الزعاطشة مثالا حيّا عن حقد المحتل وبربريته وهمجيته، لأن تلك الجماجم المتواجدة في فرنسا إلى اليوم لأبطال الزعاطشة الثلاث وغيرهم الكثير، لا تشهد إلا بتلك البطولات المنقطعة النظير التي بها دافع أصحاب الأرض عن أرضهم، وفي ذات الوقت تشهد بالمجازر اللاإنسانية التي ارتكبها الاحتلال الفرنسي في ربوع كثيرة من الوطن منذ بداية الاحتلال وإلى غاية الاستقلال.

الهوامش:

1- اسمه الحقيقي "عبد الرحمن بن زيان"، ينظر: أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية**، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1992، ص. 331.

(2)- ANOM, 10H/76 , Journaux de marche de la colonne de Zaatcha, Septembre- octobre- novembre 1849, Journal des opérations de la colonne expéditionnaire, Journal des opérations de l'artillerie.---(3)- Colonel Herbillon, Quelques pages d'un vieux cahier, souvenirs du général Herbillon (1794-1866),Berger. Levrault Editeurs, p. 127.

(4)- SHAT, GR 1H 211, Histoire de la campagne du Ziban, Siège et la prise de Zaatcha.

(5). SHAT, GR 1H 211,op., cit.---(6). Ibid.----(7)- Ibidem.---(8)- Colonel Herbillon, op., cit, p. 129.---(9)- Ibid, p. 130.---(10)- Le Général Herbillon , Relation du siège de Zaatcha, Librairie militaire, Paris, 1863, p. 27.---(11)- Ibid, p. 28.---(12)- Charles FERAUD, Histoire des villes de la province de Constantine, (Sétif, Bordj Bou Arreridj, Msila, Boussaâda), Typographie et Lithographie, L. Arnolet, Constantine, 1872, p. 364---(13)- SHAT, op., cit---(14)- Le Général Herbillon, op., cit, p. 33.---(15)- SHAT, ibid.---(16)- Général Herbillon, Ibid, p. 35.

(17)- ANOM, op., cit.---(18)- E. CH. Bourseul, Ancien officier de l'armée d'Afrique, Souvenirs de la guerre d'Afrique, Insurrection des Ziban, Zaatcha, Imprimerie Militaire de Varronnais, Metz, 1851, p. 25.---(19)- Le Général Herbillon, op., cit, p. 37.---(20)- Ibid, p. 49.

(21)- ANOM, op., cit.

(21)- كان بالزاوية قبل قدوم القوات الفرنسية ما يقارب 150. عائلة نزحت إلى الواحة قبل الهجوم وعوّضها المقاومون: ينظر: Le Général Herbillon, op., cit, p. 75.

(23)- ANOM, ibid.---(24)- Paroles prononcées à Besançon le 17 janvier 1850 par le colonel D'oussières, sur la tombe du colonel de génie Petit, blessé mortellement au siège de Zaatcha, p.6.

(25)- Le Général Herbillon, p. 85.----26)- Ibid, p. 85.---(27)- Ibidem, p. 88.---(28)- ANOM, op., cit.---(29)- Le Général Herbillon, op., cit, p. 136.---(30)- Ibid, p. 156.---(31)-Ibidem.

(32)- ANOM 10H/76, Colonel Borel De Bretizel, chef d'état-major de la colonne expéditionnaire des Ziban.---(33)- SHAT, GR 1H 211, op., cit.---(34)- Ibid.---(35)-Ibidem.---(36)- E. CH. Bourseul, op., cit, p. 35.---(37)- Le Général Herbillon,op., cit, p. 86.---(38)- E. CH. Bourseul, ibid, p. 6.

(39)–أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص. 331.